المقتطف

الجزء الثالث من المجلد السادس والعشرين

١ مارس (آذار) سنة ١٩٠١ — الموافق ١٠ ذي القعدة سنة ١٣١٨

فردي VERDI

الامة جسم حي تولد وتنمو وتبلغ القوّة والكهولة والشيخوخة والهرم مثل جسم الانسان والحيوان وفيها اعضاء رئيسة لا بدَّ لها منها لنموها وارتقائها وفيها اعضاء أُخرى نسبتها الى الاعضاء الرئيسة نسبة الفضلة الى العمدة فتقطع ولا يؤثر قطعها في حياة الامة ونموها. والاعضاء الرئيسة في نوابغ الامة في العلم والعرفان في السياسة والادارة في الاختراع والابتكار في ما يقوي الامة ويرقيها ويوسع عليها موارد الرزق ويثقف عقولها ويرقي آدابها ويدمث اخلاقها ويبهج نفوسها. ومن هؤلاء النوابغ الذين تفاخر بهم الامة الايطالية غيرها من امم الارض السنيور فردي المعروف في القطر المصري برواية عائدة التي أنشأ الحانها للاوبرة الخديوية خاصةً فارتقى بها مقامهُ الى اوج موقعي الموسيقى وذاع اسمهُ في الخافقين. ولكرم اسمعيل باشا

الخديوي الاسبق اليد الطولى في شهرة هذا الرجل لان القرائح لا تُذكى بشيء كما تذكى اذا وجدت من يقدرها قدرها. ولا ندري هل اكتشف اسمعيل باشا قريحة فردي بنفسهِ فاذكى نارها او اغراهُ غيرهُ بدفع المال لهُ فدفعهُ ارضاء للغري لا شاكيًا ولا شاكرًا على جاري عادتهِ من قطع السنة الطامعين فيهِ بكل ما لديهِ من الصلاة ليخلص من لجاجتهم. والرأي الثاني هو الاوجه عندنا لانهُ لم يكتشف بين ابناء بلادهِ قريحة واحدة فيذكيها وهي لم تخلُ من القرائح

ولد فردي في التاسع من اكتوبر سنة ١٨١٣ فتوفي في الثامنة والثمانين . عمر ابتدأ بالفقر المدقع وتوسَّط بالشهرة الفائقة وختم بالغنى وجلالة القدر واعمال البر والاحسان وسقط رأسهِ قرية رنكول على سبعة عشر ميلاً من بارما . وفي السنة التالية من ولادتهِ كانت ايطاليا ميدانًا لجنود الدول المتحدة على فرنسا فعاثت فيها ولجأ نساء قريتهِ الى الكنيسة فكسر الجنود ابوابها ودخلوها ولم يعفوا عن ولد ولا عن امرأة الا ان امهُ حملتهُ وصعدت بهِ الى قبة الجرس واختفت هناك فلم يرها احد

وسمع فردي رجلاً يلعب على الكمنجه وهو ولد صغير فتنبهت قريحتهُ الموسيقية والحَّ على ابيهِ حتى اشترى لهُ ربابةً صغيرة فجعل ينقر عليها ساعةً بعد ساعة من غير ملل . وكان في قرية ابيهِ رجل يلعب على ارغن الكنيسة فعلَّمهُ المبادىء التي عرفها ولم يحلْ عليهِ الحول حتى وجد انهُ صار يعرف مثلهُ فلم يعد عندهُ شيء آخر يعلمهُ اياهُ

وكان ابو فردي على غاية من الفقر وله في قريتهِ دكان صغير كان يجلب ما يبيعهُ فيهِ من بلدة بوسترو من بدَّال اسمهُ بارزّي فرضي هذا الرجل ان يضع فردي عندهُ صانعاً وكان يميل الى الموسيقى فسرَّ بما رآهُ منهُ وساعدهُ على تعلُّمها . ولما صار عمر فردي عشر سنوات اختير للعب على الارغن في كنيسة قريتهِ وجُعلت اجرتهُ نحو مئة واربعين غرشًا في السنة

وكان يطمع في وضع الانغام للروايات الشعرية وعلم ان ذلك لا يتم لهُ ما لم يقرأ الموسيقى على اهلها فلجأ الى البدال بارزّي فقرضهُ ما يحتاج اليهِ من النقود ومضى بها الى ميلان ليتعلم في مدرسة الموسيقى فلم يرَ منهُ اساتذتها ما يدلُّ على نجابتهِ فرفضوهُ . فجعل يدرس الفن على رجل اسمهُ لافنجا . وبعد سنتين توفي الرجل الذي يلعب على الارغن في كنيسة بوسترو حيث معلمهُ البدَّال فاختير لها وكان يحب ابنة بوسترو فاقترن بها سنة ١٨٣٦

ووضع انغام الرواية المسماة اوبرتو سنة ١٨٣٨ ومضى بها الى ميلان . وكانت جمعية حب الموسيقى عازمة على انشاد منظومة لهيدن وغاب المدير الذي يقود اللاعبين فطلبت من فردي ان يقوم مقامهُ فادهش السامعين بمهارتهِ فعين مديرًا للموسيقى فيها

وبعد عناء كثير مُثلت رواية اوبرتو سنة ١٨٣٩ فنجحت نجاحا عظيماً وكان مرلي يدير الاوبرة في ميلان وفيناً فطلب منهُ ان يضع لهُ انغام ثلاث روايات شعرية من نوع الاوبرة وهو يدفع لهُ عن كل واحدة ١٣٤ جنيهاً ونصف الربح من بيع ما يطبع منها . فوقع هذا الطلب منهُ وقوع المطر من الارض العطشانة لانهُ كان قد عجز عن دفع اجرة بيتهِ وعزم ان يقترض من حميهِ عشرة جنيهات فطلب من مرلي ان يدفع اليهِ جانباً من الاجرة سلفاً فلم يقبل فاسقط في يدهِ وضاقت الدنيا في عينيهِ ولم يعرف كيف يجد اجرة بيتهِ حتى مرض من جراء ذلك لكن زوجتهُ بادرت الى معونتهِ وجمعت ما عندها من الحلى ومضت ورهنتها عند صراف واتتهُ بالنقود ليدفع اجرة البيت . قال فردي بعد ذلك " ولا اعلم كيف سهل عليها رهن حلاها ولكن فعلها هذا اثَّر في اعماق نفسي فعزمت ان لا يهدأ لي بال حتى استنك الرهن "

والمصايب لا تأتي فرادى فمرض ولداهُ وزوجتهُ وتوفوا في اقل من ثلاثة اشهر وهاك ما قالهُ في هذا الصدد "مرض ابني في شهر ابريل (سنة ١٨٤٠) ولم يعرف الطبيب علتهُ فزاد ضعفاً الى ان مات على ذراعي والدتهِ فانصدع فؤادها ثم مرضت اختهُ وقضت نحبها حالاً ولم يأتِ شهر يونيو حتى مرضت زوجتي بالحمى الدماغية وفي التاسع عشر من ذلك الشهر حملت الجثة الثالثة من بيتي وامسيت وحيداً شريداً . في اقل من ثلاثة اشهر خرج من بيتي ثلاثة وهم كل الذين احبهم في هذه الدنيا "

ووضع انغام رواية بعد بضعة اشهر فلم يستحسنها احد والظاهر ان حزنهُ على زوجتهِ وولديهِ الوحيدين بلبل بالهُ فلم يحسن الايقاع فاسقط في يدهِ وعزم ان لا يوقع نغماً آخر لكن قريحتهُ عادت فانتعشت واستردَّت مضاءها فوضع انغام رواية نبوخذنصر سنة ١٨٤١ ومثلت في شهر مارس التالي فاطلعت نجمهُ في سعد السعود . وهاك ما قالهُ عنها "هنا ابتدأ نجاحي في الموسيقى فان رواية نبوخذنصر وضعت انغامها في طالع سعد لان المصاعب التي حالت اولاً دون نجاحها تحوَّلت الى معينات لها . وكان ذلك بعد ان صبرت على مضض الفقر والقنوط زماناً طويلاً وضحك عليَّ كل اصحاب المطابع وطردني ممثلو الروايات وضعف قلبي وخارت قواي ولم اثبت على عزمي الاَّ عناداً حتى سمح لي ان اجرب رواية نبوخذنصر في مشهد لاسكالا بميلان . وكان العمال يصلحون المشهد وجعل المغنون يغنون على اقبح ما يكون ولكنهم لم يتقدموا في الغناء كثيراً حتى ترك العمَّال اعمالهم واصغوا الى صوت الموسيقى كأنهم في كنيسة حتى اذا تمَّ فصل الغناء اندفعوا يصفقون وينادون برافو برافو فيف إل ميسترو (اي احسنت احسنت ليعش رب الفن) فعلمتُ حينئذٍ ان المستقبل لي

وتلت هذه الرواية روايات اخرى الى ان وضع انغام رواية عائدة ومثلت في الاوبرة الخديوية اول مرة سنة ١٨٧١ ثم في كل مشاهد التمثيل في اوربا واميركا الاَّ في مشهد بيروت بالمانيا حيث تمثل روايات وغار. وارتق بها اسم فردي حالاً الى الطبقة العليا بين ارباب الموسيقى

رأينا هذه الرواية تمثل مراراً في الاوبرة الخديوية وسمعنا ما فيها من الموسيقى الشجية وقد كنا نحتقر الديانة الوثنية ونزدري خزعبلات كهنتها وكاهناتها ونستخف عقول اصحابها ولا ندري ما يحملهم فيها على التدين والتقوى حتى شاهدنا فصول هذه الرواية وسمعنا انغامها الشجية ورأينا كاهناتها يكدن يذبن خشوعاً ويذبن الجماد بالحانهنَّ واصوات المعازف التي تعزف معهنَّ وتمتزج حركاتهنَّ بانغامهنَّ امتزاج الخمر بالماء والراح بالروح فانجلى لنا سرٌّ غامض ورأينا سلطة الموسيقى على العقول وعلمنا انها كانت الركن الاول من اركان العبادة . وسواء كان الغناء قد بلغ هذا المبلغ في هياكل المصريين او لم يبلغهُ ولابلغ ما يدانيهِ فلا شبهة انهُ كان يؤثر في نفوسهم هو وخشوع كهنتهم وكاهناتهم تأثيراً يخلب العقول ويجذب النفوس الى التدين والتقوى . ولم نكد نفرغ من كتابة هذه السطور حتى جاءنا بريد اوربا بمجلة القرن التاسع عشر وفيها مقالة عن فردي بقلم تلميذهِ ادورد جريج النروجي ذكر فيها رواية عائدة ووفاها حقها من الوصف حيث قال ما ترجمتهُ

" ووقف فردي عن الايقاع والتلحين مدة ثم انشأ انغام عائدة سنة ١٨٧١ . انشأها فاعجب وابدع . اذا سألني سائل مأخذ مَن اخذ فردي فيها عجزتُ عن الجواب لانها مبتكرة واقفة وحدها على قمَّة الفن في كل العصور . نعم ان ارباب الفن المحدثين في فرنسا والمانيا افادوهُ ولكن فائدتهُ منهم كانت مقصورة على تنبيههِ لا غير . عائدة تحفة يتيمة افرغ فيها قريحتهُ الخاصَّة بهِ واضاف اليها احسن ما بلغهُ فن الموسيقى في هذا العصر فامتزج فيها فردي الايطالي وفردي الاوربي ولذلك بدت انغامها لابسة حلة عامَّة يدركها كل واحد ففازت بالنجاح في كل الدنيا لانها تتكلم بلغة الناس كلهم (اي الموسيقى العامة) ولذلك لا نضطر ان نرجع الى ايطاليا لفهمها . وانغامها وموافقاتها وتوقيع المعازف بعضها مع بعض كل ذلك يستحقُّ الاعجاب ويزاد عليهِ الصبغة المصرية التي للرواية لا لان فردي درس التاريخ المصري درساً دقيقاً فاستخلص منهُ انغام الرواية بل لان مخيلتهُ نقلتهُ الى وادي النيل فاستنبط ما ينطبق على احوال المكان والزمان حتى ان مَن يرى بداءة الفصل الثالث منها مثلاً ويسمع انغامهُ يظن نفسهُ في ليلة ليلاء على ضفَّة النيل"

ووضع انغام اوتلو بعد ست عشرة سنة فارتق بها الى اوج مجدهِ ولم يحط عنهُ بقية عمرهِ ووضع بعدها انغام الفلستاف سنة ١٨٩٣ قال المسترستر تفيلد في وصف هاتين الروايتين .

" انهُ يتعذَّر عليَّ ان لا اغالي في وصفها لان اعجابي بهما يقرب من العبادة . ولم يجمع الناس كلهم على مدح رواية كما اجمعوا على مدح الفلستاف وهو ان ودَّع الدنيا بها ودَّعها باسماً مسروراً "

وكما ان الخطباء لا يفلحون ما لم يكن فيهم ميل الى الثورة والانتقاض على الحالة التي فيها بلادهم كذلك ارباب الفناء لا يخلبون الالباب ما لم يميلوا هذا الميل . ومن امثلة ذلك ما رأيناهُ في هذه العاصمة لما تغنَّى عبدو افندي الحمولي بالصوت الذي مطلعهُ " عشنا وشفنا العجب " فانهُ حكَّ بهِ حزازات في الصدور فارتاحت اليهِ النفوس ايَّ ارتياح . وهذا كان شأن ڤردي فانهُ لما نشأ كانت بلاد لمبرديا في يد النمسويين وكان سكانها الايطاليون ناقمين عليهم راغبين في الثورة خلع نيرهم فجاءهم على حسب اهوائهم وضمَّن اوبراتهِ اميالاً ثوروية فانتعشت بهِ نفوسهم وجعلوا يحيونهُ في المشاهد وينادون ليحيَ ڤردي . وفي اسمهِ Verdi خمسة احرف مثل الاحرف الأُوَل في هذه العبارة Victor Emmanuel Re D'Italia. فكأنهم كانوا ينادون ليحيَ فكتور عمانوئيل ملك ايطاليا . فزادت شهرتهُ عند الايطاليين وعلا مقامهُ في نفوسهم . وضمَّن كثيراً من رواياتهِ الحض على الثورة وطلب الاستقلال فلم تكن تُمثَّل الاَّ وينتهي تمثيلها بثورة في الخواطر ومظاهرات بطلب الاستقلال واذا اعترض رجال الشحنة النمسويون قال الايطاليون انما نحن نباهي بڤردي وندعو باسمهِ . حتى اذا تحرَّرت ايطاليا كلها جُعل عضواً في مجلس النواب لاشتراكهِ في تحرير بلادهِ

وانهالت الثروة على ڤردي بعد الفقر المدقع فان اسمعيل باشا اعطاهُ مئة وخمسين الف فرنك لمَّا الف لهُ انغام عائدة وكل الذين مثَّلوها في اوربا واميركا دفعوا لهُ شيئاً كجزية وقس على ذلك اوبراتهِ الاخرى فانهُ ربح منها كلها ربحاً وافراً لكنهُ بقي على بساطة المعيشة وانفق امواله في الاعمال النافعة لبلادهِ ولمدينهِ فانشأ مستشفًى سنة ١٨٨٨ ودارًا للعجزة من رجال الموسيقى تسع ستين رجلاً واربعين امرأة يقيمون فيها آكلين شاربين . وتزوج ثانية سنة ١٨٥١ بامرأة مشهورة بالغناء . وبيتهُ في سنت اغاتا متحف للصور البديعة والكتب النادرة

ومن النوادر الكثيرة التي تظهر بساطتهُ واستقامتهُ ان رجلاً اراد ان يسمع اوبرة من اوبراتهِ فقصد المشهد الذي تُغنَّى فيهِ وكان بعيداً عنهُ فدفع اجرة السفر ولم يسرَّ بسماعها . فقصد المشهد ثانية وسمعها فلم تعجبهُ فكتب الى ڤردي يشكو من ذلك ويقول لهُ انني دفعت كذا وكذا على سماع الاوبرة الفلانية فاضعت مالي سدى . فكتب ڤردي الى وكيلهِ يقول ادفع اليهِ كل ما دفعهُ ما عدا ثمن الاكل وخذ عليهِ صكاً انهُ ما عاد يطالبني بشيء اذا سمع اوبرة من اوبراتي ولم تعجبهُ . وتوفي في السابع والعشرين من يناير الماضي فاسفت عليهِ ايطاليا

والعالم اجمع ووردت تلغرافات التعزية على عائلته من ملك ايطاليا بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن بيت الملك ومن السنيور غالو بالنيابة عن الحكومة الايطالية ومن دون بروسبر وكولونا بالنيابة عن رومية . وجاء في تلغراف الملك انهُ "مشارك لعائلة الفقيد في الحزن الشديد على فقيدها ومشارك لايطاليا وللعالم اجمع في الاكرام لذكر فردي الخالد والاعجاب بيد في الساعة التي خسرت فيها الامة الايطالية بفقده خسارة لا اعظم منها ولا مثيل لها". واجتمع مجلس الشيوخ اجتماعًا خاصًّا وقرَّر ان يحتفل بجنازته على نفقة الحكومة ويرسل مندوبون من المجلس لحضور الجنازة وينصب لهُ تمثال في المجلس يبقى اثرًا خالدًا لهُ فيهِ . وأقفلت المشاهد والملاهي والمدارس والمخازن في ميلان احترامًا لهُ ووضعت شارات الحداد على البيوت . ولما اجتمع مجلس النواب قام الرئيس وناظر المعارف وسبعة من زعماء الاحزاب المختلفة وابنوه احسن تأبين وقرَّر المجلس باجماع الآراء وضع شارات الحداد في المجلس سبعة ايام وتعزية مدينتي بستو وميلان عن فقدهِ ثم فضوا المجلس دلالة على الحداد

هكذا تكرم اوربا نوابغها ولو كانوا من المغنين وهكذا تذكى نار القرائح وتشحذ مواضي الهمم فلا عجب اذا اتَّقدت الغيرة في فؤاد كل رجل وكل امرأة وسعي كل احد ليكون عظيمًا في قومهِ

النور الكهربائي الجديد

انتقدنا على المستر تسلا في الجزء الماضي من المقتطف ادّعاءهُ مخاطبة سكان المريخ او مخاطبتهم ايانا باشارات كهربائية لكن ذلك لا يحط من فضل الرجل ولا يدلُّ على ان مباحثهُ الاخرى عقيمة مثل هذا البحث فقد نقلت السينتفك اميركان الآن رسالة نشرها في الشمس الاميركية (نيويورك صن) ادَّعى فيها انهُ اتَّصل الى اكتشاف قنديل كهربائي ينير نورًا ساطعًا مثل نور الشمس وليس لهُ الاَّ سلك واحد وهاك ترجمة رسالتهِ

ان هذا القنديل هو نتيجة بحثي المستمر منذ ابتدأت في التجارب امام الجمعيات العلمية في هذه البلاد وفي غيرها . وقد تغلَّبت على مصاعب كثيرة لكي اجعلهُ سهل الاستعمال واجعل من عملهِ ربحًا لعاملهِ . ومن جملة هذه المصاعب الحصول على اهتزازات كهربائية سريعة جدًّا على اسلوب بسيط قليل النفقة . وقد تسنَّى لي ذلك وتدلُّ النتائج التي نتجت لي حتى الآن ان هذا النور الجديد سيكون اقل نفقة من النور الكهربائي المستعمل الآن وزد على ذلك انهُ يمتاز عن كل طرق الاستصباح محيًا وهو اقرب الانوار كلها الى نور الشمس على ما يظهر لي